خلاصة عامة

تمثل إشكالية الضياع، والتيه، والإحساس بالأسر، أقنوماً جوهرياً في رؤية الشابي إلى العالم والفن، ولا أدل على ذلك من عناوين القصائد نفسها، التي تسمى الزيغان / التوه، أو تومئ إليه. يتبدى ذلك مثلاً في العناوين التالية: ((أغاني التائه))، ((إلى قلب التائه))، ((الأشواق التائهة))، ((الجنة الضائعة))، وهو في قصيدة ((مناجاة عصفور)) يعبر عن إحساسه بالأسر، فيقول مطابقاً بينه وبين العصفور:

غرد ففي قلبي إليك مودة

لكن مودة طائر مأسور

هجرته أسراب الحمائم وانبرت

لعذابه جنية الديجور

ويرسم الشابي لنفسه صورة الزيغان، في قصيدة أخرى:

أنا في درب الحياة الغامضة

تائه حيران

ويقارن في موقع آخر، بين حاضره وماضيه، فيلحظ أن الأمر متناقض بين الاختلاف:

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمه

واليوم، قد أمست كأعماق الكهوف الواجمه

وتتطاوح المسافات بين كآبة الشاعر، وكآبة الآخرين:

كآبة الناس شعلة ومتى

مرت ليال خبت مع الأمد

أما اكتئابي فلوعة، سكنت

روحي وتبقى بها إلى الأبد

هكذا يتوضح أن ليل الأسر طويل على الشاعر، وغامض، وأبدي، والمعضلة أن الشابي بقي يجوس في المجهول، لم يدرك سر العالم، فصاح في ((صميم الحياة)) متحسساً دروب الكون الغائم، متسائلاً:

يا صميم الحياة إني وحيد

مدلج تائه فأين شروقك؟

ولا شك أن عنف الاصطدام مع العالم الخارجي، هو الذي خلخل سكونية الشاعر، ورمى به في رهج البلبلة، والتسآل، والحيرة تلت الحيرة المهووسة، الزاخرة بالأسئلة، والمثقلة بعناقيد الفهم. وكما يقول ابن العربي: ((كلما زادت الحيرة زاد العلم)). والعلم الذي استنبطه الشابي من تجربته الوجودية الصادقة هو ـ بدئياً ـ امتشاق الأسئلة الصعبة في وجه هذا العالم الماحل الغارق في السديم.

وكما تساءل البير كامي عن جدوى التكرارية، متمثلة في ترادف الأيام الطائرة ((الاثنين ـ الثلاثاء ـ الأربعاء ـ الخميس ـ الجمعة ـ السبت ـ الأحد ـ الاثنين ـ الثلاثاء ـ ....)) والأيام تتوالى وتتتابع، والدوار لا ينتهي... فإن الزمن لدى الشابي ((سأم)) لا يذهب أمامياً، وإنما هو يلف، به، معه، حوله، متراجعاً منكفئاً على أعقابه. إن الزمن الشابي ثابت في الزمان. ومن هنا نفهم سبب ذلك الدوار الغامض السري، الذي يصيب الشاعر الواقف مذهولاً في مركز دائرة الزمن الدائري:

سـأم هـذه الحيـاة معـاد

وصـباح يكـر في أثـر ليـل

أسئلة الشابي لا أجوبة لها، هو الموقف الانكاري الحاسم ((ما جدوى الحياة))؟ ومن هنا تتأكد الثنائيات الضدية: العلو / الهدم / التشييد / الخراب، التكوين / الوهم، الحياة / الكرب، الذوى / النمو، فتزدحم كلها في الأبيات التالية:

أرى هيكـل الأيـام يعلـو، مشـيداً

ولا بـد أن يـأتي علـى أمسـه الهـدم

فيصـبح مـا قـد شـيد الله والـورى

خرابـاً، كـأن الكـل في أمسـه وهـم

فقـل لـي: ((مـا جـدوى الحيـاة وكربهـا

وتلـك الـتي تـذوى، وتلـك الـتي تنمـو؟))

فأن يعجز المرء على فهم أوالية الملكوت، وعلى أن يفك سر الكون، الأولاني، أمر وارد، ومحتمل، ومشروع أيضاً. أما ألا يدرك حتى غاية ذلك، فكارثة لا تطاق في عرف أبي القاسم الشابي:

((نحن نمشي، وحولنا هاته الأكوان تمشي... لكن لأية غاية؟))

هكذا، يجد الشابي نفسه على ((سطح من الصفيح الساخن)) فيرتبك، و((تطل من رأسه الظنون، وتشد أذنه)) فيتشوش ذهنه، ويتحول إلى فوضوي جبار، عنيد، فيعلنها قاصمة صاعقة:

((لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيته في النار، نار الجحيم))

بهذا، يعدم الشابي العالم، ويرمي بالملكوت إلى العدم. هو إذن موقف عدمي باكتمال المعنى. يتجلى ذلك أكثر في علاقة الشاعر بالصانع الأول: الله. لقد بات الأمر إشكالياً إذن، فقد توهج السؤال، وتوغل في الملك والملكوت، وتأوج متعالياً نحو العرش الإلهي صاعقاً كهربائياً:

((خبروني، هل للورى من إله، راحم ــ مثل زعمهم ــ أواه

يخلق الناس باسماً، ويواسيهم، ويرنو لهم بعطف الاهي

ويرى في وجوههم روحه السامي، وآيات فنه المتناهي

إنني لم أجده في هاته الدنيا، فهل خلف أفقها من إله؟!))

لكن إيمان الشاعر بالله، سرعان ما يعود، فهو أعمق من أن يزعزعه الحدثان، فيعبر الشاعر عن ندمه، وينكفئ، متجهداً، ملتمساً الصفح والغفران:

((يا إلاهي! قد أنطق الهم قلبي بالذي كان...، فاغتفر يا إلاهي!))

على أن إيمان الشابي بالله راسخ شامخ، لا مجال للطعن فيه، فهو يستنفر ((حماة الدين)) أن يتصدوا لأعداء الإسلام، ويدافعوا عن مبادئه السامية المقدسة:

لحى الله من لم تستثره حمية على دينه، إن داهمته العظائم

لحى الله قوماً لم يبالوا بأسهم يصوبها نحو الديانة ظالم

بذلك، يتأكد أكثر موقف الشابي العقائدي، وتتوضح، أيضاً، به، يقينته الإسلامية، ودرجة ارتباطه معه. لكن الأهم أن لذلك الارتباط / الانتماء مدى آخر، أو، أفقاً آخر، هو التنافذ: Osmose بين العقائدية، والشعرية، إذ يتجسد ذلك مثلاً في تشبيه الشابي للغاب بالمحراب:

والكون من طهر الحياة كأنما هو معبد، والغاب كالمحراب))

إننا نتساءل لماذا يرى الشابي إلى الغاب بهذه الرؤية التقديسية؟ ماذا يمثل الغاب إذن بالنسبة إليه، وإلى الرومانطقيين جميعاً؟ ما موقف الشاعر من المجتمع والناس؟ ما مدى ارتباطه بهم؟ وانسجامه معهم؟ ما هي ـ بكلام آخر ـ حدود الاتصال و / أو الانفصال بين الأنا والآخر؟

بدءاً، ينبغي التوكيد على أن أبا القاسم الشابي، هو، شاعر الحساسية المفرطة، والانفعالية المفرطة، والانفعالية المتوفزة، والرقة، والشفافية، والحسّ الناعم، اللطيف:

((والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي، ورقة نفسي))

كما أدت به حساسيته، وشفافيته إلى أن يلوذ بساحة نفسه:

((لم أجد في الحياة لحناً بديعاً يستبيني سوى سكينة نفسي))

ولقد وجد في المرأة الجميلة، شعاعاً من أمل:

((إن في المرأة الجميلة سحراً عبقرياً، يذكي الأسى، وينيمه))

وألفى في الفن والشعر طائراً ناعم الجناح:

((يا طائر الشعر! روح على الحياة الكئيبه
وامسح بريشك دمع القلوب فهي غريبه))

أما الطبيعة، بشكل عام، والغاب بصفة خاصة، فيمثلان بالنسبة لأبي القاسم الشابي، بوابة الخلاص، ودوحة السلام الفيحاء، ولكن الغاب ظل جامداً، حيادياً:

((وجئت إلى الغاب أسكب أوجاع قلبي نحيباً، كلفح اللهيب
نحيباً تدافع في مهجتي، وسال يرن بندب القلوب
فلم يفهم الغاب أشجانه))

هكذا، إذن، تكتمل محاصرة الشاعر. بل إنها محاصرة مكثفة، من الدرجة الثانية. فالملاذ ليس سلاماً، لكنه وهم سلام؛ وليس حريراً، لكنه وهم حرير،

وليس صديقاً، لكنه عدو في ثوب صديق ـ ومن هنا، مطاردة الشاعر المستمرة، المتواصلة، لخيال / ظل / طيف الحرية، المتلاشي في الهواء، أو، في المدى، كما السراب:

((أنا شاعر. والشاعر يجب أن يكون حراً كالطائر في الغاب،

والزهرة في الحقل، والموجة في البحار...))

ومن هنا، شرعية التساؤل عن جدوى استمرار العلاقة بين الأنا والآخر ـ فالتنازل من جانب واحد ـ والناس يتجاهلون الفرادة والعظمة، ولا يعترفون بالجميل للشاعر العبقري:

حتى العباقرة الأفذاذ، حيهم

يلقى الشقاء وتلقى مجدها الرمم

وبعد هذا كله، هل سيموت الشاعر يأساً؟ كلا. لقد تحول ـ إلى الرائي الأكبر، النبي العراف، الذي يرى ما لا يرى الآخرون. إنه يتلمح المستقبل في صفاء المرآة إنها الرؤية المستقبلية كأروع ما تكون، رغم الحزن النازف، والغربة المكثفة، يقول الشابي، في بعض نصوص مذكراته:

((الآن أدركت أنني غريب بين أبناء بلادي ـ وليت شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر، فترتل أغاني أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه أدمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد...))

وعلى أية حال، فإذا ضاق العالم الظاهري، بفضاءاته اللامتناهية، وبحاره، وجباله، وسهوبه، وصحاريه، وكواكبه، وأشجاره، وأقماره.... فإن لأبي القاسم

الشابي. فلكاً باطنياً، تخيلياً، صوفياً، يقبع فيه الشاعر كلما مل العالم الفاني المزيف.

هكذا، استبدل أبو القاسم الشابي المثل / البراني، بالممثول/ الجواني هكذا، تلمس الشاعر فراشة الروح/ ياقوتة القلب.

والقلب، هو أقنوم التجربة الشابية بامتياز.

وقلما نعثر على نص أدبي للشابي لا يذكر فيه قلب الشاعر، المليء بالمحبة، والطافح بأشياء العالم كلها:

كل ما هب، وما دب، وما نام، أو حام على هذا الوجود

من طيور، وزهور، وشذى وينابيع، وأغصان تميد

وبحار، وكهوف، وذرى وبراكين، ووديان، وبيد

وضياء، وظلال، ودجى وفصول، وغيوم، ورعود

وثلوج، وضباب عابر وأعاصير، وأمطار تجود

وتعاليم، ودين، ورؤى وأحاسيس، وصمت، ونشيد

كلها تحيى بقلبي حرة غضة السحر، كأطفال الخلود

وليس هذا خيالاً غرائبياً، أو وهمياً، أو سريالياً، إنما هو تماهي العالم الأكبر: macrocosme في العالم الأصغر: microcosme ، وحلول الكل في الواحد ـ وكما قال جلال الدين الرومي:

((لو فلقت ذرة إلى نصفين، لوجدت شمساً، وكواكب تدور حولها))

لكأننا بالشابي، قد استبدل الطبيعة أو الغاب، بالقلب/ بالفلك. أو أن الغاب قد تحول إلى مدينة القلب، وسكن منها في الصميم. ولم لا نقول: إن الغاب قد أصبح تنويعاً على القلب، أو أن القلب لم يكن ـ في واقع الأمر ـ سوى الغاب إياه. نابضاً بالحياة في جسد الشاعر.

والحق، فإننا نلقي صورة القلب/ الفلك. في كثير من الموانع الأخرى. مثل قصيدة: ((صلوات في هيكل الحب)) مقطعها الثالث. أو قصيدة ((الأبد الصغير)) بحذافيرها...

بطبيعة الحال، هذا الموقف من المجتمع والناس، والطبيعة، والغاب، هو موقف عام، مشترك، بين كل التيار الرومانطيقي، بدءاً من **جان جاك روسو** في القرن الثامن عشر، وهو الذي عبر عن الحصار بصرخته الشهيرة: ((إني أختنق في الكون)). حتى **لامارتين، وهوغو ودى موسيه** مروراً **بشاتوبريان**، في فرنسا. **وكيتس، ووردزورث، ونوفاليس، وشيلنغ، وغوته**، في غير فرنسا. ولعل أحسن من يمثل هذا المنحى عند العرب، هي مدرسة **أبولو** خاصة، ممثلة في **أبي القاسم الشابي**، الذي يمكن اعتباره أنقى عناصرها.

ولا ينبغي، من ناحية أخرى، أن نتصور الشابي آلة ميكانيكية ذات استجابات شرطية إلزامية سائبة، يمكن التنبؤ بها مسبقاً. كلا. فللشابي علاقات وطيدة مع من يقدرونه حق قدره، ويلاطفونه، من بين أهله، ورفاقه من المثقفين، وغير المثقفين، تشهد بذلك مذكراته، ورسائله، وأشعاره أيضاً.

لكن، ما يمكن الجزم به ، هو أن الملمح السائد، أو الغالب، أو المهيمن على شخصية الشابي، هو النزوع إلى التفرد والانطواء، والإحساس بالحيرة والغربة، والتوحد، حتى مع أقرب الناس إليه ، ، والشابي نفسه، يقر في مذكراته، بأنه رجل ((عصبي))، حاد المزاج ـ وبكلمة، فإن انفرادية الشابي، هي انفرادية خلاقة[1] .

---

(1) مقتطفات كاملة من دراسة نقدية هامة بقلم الناقد والأديب التونسي الكبير محمد كمال المدائني، اعتماداً على مجلة الشعر التونسية.

ويستريح شاعرنا اليوم في ضريحه، بعد أن أدى رسالته الحياتية كاملة نحو شعبه، ونحو الإنسانية ونحو الأدب ورسالته العظيمة أداها كاملة لأنه لم يكن خاضعاً لمزاجه النفسي، أداها على أحسن وجه، بالرغم من حياته القصيرة. وأداها كاملة لأنها أطلقت الشرارة الأولى، التي قال عنها ذات يوم أنها ستطيح بأصنام العبودية... وبالتقاليد السلوكية المتزمتة:

يـــا شـــعب قـــد خلقـــت فيـــك شـــرارة
ستشـــــب يومـــــاً نارهـــــا بضـــــرام

* * * * * * * * * * * * * *

* * * * * * * * * * *

* * * * * * * * *

* * * * *

* * *

* *

*

obeikandl.com